عائشة عصمت تيمور

(١٢)

نثرها

(١) كتاب « نتائج الاحوال »

أمّا الشعرُ فقد قرضتهُ عائشة تحدّيًا لبعض مَن سبقتها من « ذوات الخدر والأحساب » أو كما قالت :

ما قلتهُ إلاّ فكاهة ناطقٍ بهوى بلاغة منطقٍ وكتابِ

وأمّا النثر فقد عالجتهُ لاملاء ساعات الفراغ الطويلة التي لم تكن لتستنفدها محبّةُ الابناء ، وفروض العبادة ، وقرض الشعر . وقد شعرت قليلاً قليلاً بأنها تحبُّ ان يكون لديها بلاغ تؤدّيه إلى قومها . وامّا هذا الكتاب خاصّة ، « نتائج الاحوال » ، فهي تبسطُ لنا في مقدمته ما الباعث على إنشائهِ ، وتخبرنا كيف كانت دوامًا تميل إلى استقصاء أحاديث السلف ، وتحبُّ مسامرة الكبار ومجالس العجائز لتسمع اخبارهم « والتقط من تلك النوادر أعاجيب القدر » . ولما تمّ لها ذلك وانشأت تطالعُ « من التواريخ ما قدرت قدرتي أن تدانيهُ ، وما أمكن فكرتي الخامدة ان تصل إلى فهم معانيهِ » . « ولمّا تأمّلتُ في سيَرِ سيَرِ الأمم ، وتحقّقتُ ان السعد والنحس منوطان بالقدر من القِدَم ، وقد شاهدتُ والله في نفسي صدق هذا الخبر » . « فدعتني الرأفة بكلّ مفتون لقي ما لقيتُ ، ودعتني بما بهِ دهيتُ ، إلى أن أبدع لهُ احدوثةً تسلّيه عن أشجانهِ عند تزاحم الأفكار . . . »

إذن فلتعمدن إلى تخيّل الخيالات ونسج الحكايات . وذلك لن يكلفها أكثر من جمع شتات ما قرّ في ذهنها من حكمة العجائز وما يتطابق واياهُ من تجربتها الشخصية ، لتدوين آراء شائعة مقبولة في احوال هذا الناس : في السعد والنحس ، في الصبر والمواساة ، في الخيانة والوفاء ، في الحبّ والمقت ، في القضاء والقدر ، وفي التربية الصالحة الاخلاق الحسنة ، وما يستتبع المصائب والرزايا في النفس الغنيّة الرشيدة من التقويم والرجوع عن الغيّ والضلال

هذا هو « نتائج الاحوال » . هو حقًّا من رواسب تلك القصص التي سمعناها جميعًا

في طفولتنا ، خلال الليالي الساهرة في زمهرير الشتاء ، وهزيم الرعد ، وتدفّق الامطار . فتمتّعنا منها بلذاذتين اثنتين : لذاذة التحرّز من غضب الطبيعة وصقيعها في ملجاء دافيء ، ولذاذة استماع سير الملوك والجان والابطال والعاشقين واحكام القضاء والقدر ، لينتهي بنا الامر في الغالب إلى اندحار الشرّ وفوز الصلاح

وإذا رمت مجملاً من « نتائج الاحوال » فهب انك تستمع إليّ في ليلة ممطرة ساقعة وأنت في ثوب الطفل المتطلع الغرير — في هذه الحال لتذوّق حكايتي ويروقك ان أكرّر على سمعك ما عرفتهُ من اقاصيص الماضي الساذج

***

هذه ككلّ قصة قديمة تحترم نفسها ، فيها ملك وابن ملك ووزير ونديم . وإليك أسماء أهم الاشخاص :

العادل — « ملك عظيم صالح منصور »

الممدوح — وليّ عهده ومحور ومطمح آماله وآمال الشعب . وهو بطل القصة

عقيل — الوزير . وهو رجل واسع الادراك حاذق التدبير ، وقد فوّض اليه الملك ان يدير شؤون الدولة

مالك — النديم . ويظهر انهُ عدا ما يتحسن في النديم من براعة الظرف ، ولطف السمر (وهي مواهب لم تبدُ منهُ خلال قصتنا) وعذوبة النطق ، فهو ذو مواهب خلقيّة كالوزير من حيث الاستقامة والحصافة وسعة الادراك وحسن التدبير . قد يطلب علماء النفس أيضاحاً عن هذا التقسيم السيكولوجي ولكنّ استفهامهم هذا لا يثير الواقع

دشنام — قيّم على خزينة المال

غدور — قيّم على خزينة السلاح

أما « حيلة » القصة فمنشأها ان الملك ولعٌ بولده ، وهو شأن كثيرين من الآباء الشرقيين يسيء فهم المحبّة الوالدية ويحسبها قائمة في إنالة الولد جميع مطالبه وعدم التعرّض لصدّ أهوائه . وقد بدأت تظهر نتائج هذه التربية السيئة في سلوك الولد وفساد أخلاقه . ولم يجرؤ على لفت الملك إلى ذلك الاّ الوزير والنديم . فعملا في حديث رمزيّ متبسّط ذكرا فيه غصناً في حديقة لم يحسن تقليمهُ . فأدرك الملك اللبيب غرضهما ، وألفتهُ حجتهما ، ونديهما لتثقيف وليّ عهده وتعليمه . فقاما بذلك خير قيام ، وظهرت نتيجةُ مجهودهما في وقتٍ قصير بتحوّل التلميذ النجيب عن وجهة الطلاح والجموح الى وجهة

الصلاح والسجاحة . ولا تسل عن سرور الملك ! فانهُ عبَّر عنهُ تعبيراً فاخراً بالطريقة التي ألفها ملوك الحكايات في عطفهم على من يحسنون في سبيلهم البلاء ، ويخدمونهم بصدق ووفاء

وازاء هذين الرجلين الوفيّين لمولاها ، ولوظيفتها ، وللمصلحة العامة (إن جاز مثل هذا الوصف في الحكايات القديمة) نجد مثالاً شنيعاً للحسد والخيانة والدسيسة في القيمين دشنام وغدور . فقد أخذها الامتياء من فلاح الوزير والنديم . فدأبا ليفسدا عليها الامر بتملق الأمير الصغير وإيغار صدره على هذين اللذين يقصيانهِ عن اندية اللهو والمرح ويبعدان بينهُ وبين والدهِ بحجة التهذيب والتعليم ، وهما في الواقع يكيدان لهُ لانتقاص سطوتهِ ، وكرامتهِ ، وتنغيص حياتهِ

واستتبع ذلك جهاد صامتٌ عنيف بين هؤلاء الاربعة : فتارة ترجح كفة الامير كفة الاستقامة والاخلاص ، وتارة يستسلم لصوت الرشاية والافتراء . وتم الفوز للدساسين في النهاية . لأن الحقيقة كثيراً ما تتخاذل وتتوارى في تمثل التفاني والغيرة ، وكثيراً ما يظفر المحتالون والكاذبون ! فخرج الفتى على أستاذيه الصالحين وتوعَّر خلقهُ وتفاقمت شراستهُ . واراد الوزير ان يتلافى الأمر بالتي هي احسن ، فاقترح على الملك ان يزوّجهُ . فقبل الملك الاقتراح . وأنفذ وزيره إلى ايران لمفاوضة ملك العجم في خطبة ابنتهِ بوران « المشهورة بسدادة الرأي ، وذكاء العقل ، وحسن الادارة » . ومضى النديم الى الشين (الصين ؟) لإحضار جهاز العروس وأمتعة الزواج

وخلا الجوُّ للدسّاسين قرب التلميذ المنقلب عريناً بين ليلةٍ وضحاها . فحزن الملك جدَّ الحزن لشراسة ولدهِ ، وتعاون الغمُّ والشيخوخةُ على إتلاف صحتهِ فأشرف على الموت . وماذا عسى يصنع المشرف على الموت ؟ انهُ يستدعي اليهِ ولدهُ ليزوّدهُ بالنصائح . وذاك ما فعلهُ الملك العادل . بيد ان المنية عاجلتهُ قبل ان يحمن في الكلام ، فقضى بين ذراعيّ ولدهِ مأسوفاً عليهِ من هذا الولد المسكين

وهنا ، وقد سنحت للدسّاسين الفرصة التي تربَّصا لها زمناً طويلاً ، فانهما يقومان بتمثيل الفصل الثاني والأهم من دورهما . فيوهمان الشعب بأن الملك ما زال على قيد الحياة غير أنهُ لضعفهِ ومرضهِ عهد إلى القيّمين بشؤون الدولة وشؤون ولدهِ . وينفذان الفتى إلى المجلس ويبدو كتاب مزوَّرٌ في هذا المعنى ، وهو في حزنهِ مشرَّد الفكر لا يعرف مضمون الكتاب . ومن ثمَّ يجهدان للتخلص من هذا الفتى فيفوّضان امر القضاء عليهِ إلى

عبدين يسيران به إلى خارج المدينة لقيام بمهمتهما الغادرة . ولكنهما تأخذهما الشفقة عليه ، فيكتفيان بإبعاده على ان لا يحاول العودة

ولا يفوت الخائنين ابلاغ الوزير في ايران ان الامير عشق صبيةً من بنات الافرنج وجرى في اثرها ، فعلى الوزير ان يمضي للبحث عنهُ . ويكتبان الى النديم ان الامير خرج الى الصيد فشرد به الجواد « وانساب ذاك الفرس الى ضيعتر حرصها عبيد » . فليجدّن إذن في طلبهِ — اين ؟ هنا على مقربةٍ منا ، يا سادتي ، في السودان ! نعم ، في السودان الذي هو ومصر « جزء لا يتجزأ » ، كما تعلمون

***

وها هوذا صاحبنا الوزير يطوي البراري والقفار وينتقل من دار إلى دار! وها هوذا صاحبنا النديم يذرع شواطئ النيل في أعاليهِ وينتش في اقاصي السودان واداني ! وينقضي زمن غير قليل وجميع اقطاب القصة — بما فيهم انا التي اقرأها لأُلخصها — يعمهون في مثل تيه بني اسرائيل ! وليس من سبيل يُسلَكُ في « نتائج الاحوال » غير اشتباك القصة الصغيرة باختها ، وهذه بقصة غيرها ، على نحو حكايات « الف ليلة وليلة » و« كليلة ودمنة » . وإذ كنتُ انا واصحابي اشخاص الرواية نجوب الكتاب لنعثر بعضنا على بعض فلا نفوز إلاَّ بالتطوُّح والتنائي ، كم ذا سألتُ الله ان يأخذ بيدنا فيلمَّ شملنا ويردّ لهفتنا! لاسيما الفتاة العروس بوران التي بعد ان عملت بماجرى لخطيبها المجهول طلبت الاعتزال عن الناس . واراد والدها ان يزفها إلى ابن اخيهِ ليتدارك الحال فيحوّل مجرى افكارها قبل استحالتها في الجوى . ولكنها أبت وهربت إلى حيث لا يُعثَرُ عليها . لانها على نحو ما ينشد الشيخ سلامه حجازي في القرنجراف :

عرفتُ هواكم قبل ان اعرف الهوى فصادف قلبًا خاليًا فتمكّنا

وكم كنت اغتاظ إذ اذكر اننا بينا نحنُ (أي أنا والصلاَّح من اهل الرواية) تعبث بنا الاقدار وتجدُّ بنا النوى فنتقلَّى على مثل جمر الغضى فاذا بالغاصبيْن يسرحان في بغداد ويمرحان ، ولها تُضرَب المدافع وتُنشَر الالوية ، وتقدم الرعايا فروض العبودية والاكرام

بيد ان الايام دارت دورتها وحالت الأمور على اتم ما يرام . فتلاقى بدنيًّا الأمير والنديم ، فمجلاً بالذهاب الى ايران الى حيث كانت تسوق الفتى أشواقهُ . لأنهُ مثل عروسهِ قد وقع الهوى من نفسهِ مكانًا بعيدًا ، وظلَّ في مصائبهِ ويأسهِ تلازم خاطره الفتاة التي

وُعد بها دون ان يعرفها . وكان للامير والنديم في ايران رحلات عديدة غير موفّقة . الى ان اقبلا أخيراً على جبل شاهق فاذا هناك اشارة تركها لهما الوزير فيما لو اهتديا اليها ان يعودا مباشرة الى العراق

فعادا مباشرة الى العراق وتلاقيا والوزير في زيّ ناسك . ولك ان تطلق هنا العنان لخيالك وتتصوّر ما يحلو لك من سرور وحبور، وبكاء واغماء ، يعقبهُ يقظة وسلام وكلام يناسب المقام . وانضمّ اليهم العبدان اللذان أبقيا على الامير وكان الفيان المختلسان قد أرادا الايقاع بهما لانكشاف قصتهما ، فنشلا ونجا العبدان الوفيّان . وكان هذا التلاقي منشأ لمؤامرة طويلة وقد آلى كلٌّ منهم على نفسهِ ليصرعنّ الآفة بآفة ، ويفلنّ الحديد بحديد مثله . وآزرهم طبيب الملك ، ودبر لهم الحيل فكان الفوز حليفهُ في كلّ ما دبر . فأوفد الى اصحابهِ المتآمرين عدداً من الرجال ، وحفروا نفقاً يمتدُّ حتى المدينة وينفضي الى خزينة الدولة ! وانى السعد الاّ ان يتوّج مساعيهم ويهيء لهم الافراح والليالي الملاح ، فلمّ شملهم بالعروس . واني لأكفيك مؤونة الوصف لاجتماع العاشقين السعيدين . حسبي ان اتمنى لك مثل تلك الساعة مع من تهوى . وعند ما آن الأوان ليثوب كلٌّ من الحبيبين الى رشدهِ ، جاهرت الفتاة برغبتها في العودة الى الوطن ليزفها ابوها الى خطيبها بالابهة اللائقة بالملوك!

— « لا بدّ لي ان اتوصّل الى بلادي بشرقي — تقول بطلتنا الباسلة — وأدخل قلعة أبي بصيانتي . ثمّ يبعثني هو إلى هذا العزيز بسيادتي »

وكذلك كان

وعاد الاصحاب بعدئذٍ لإتمام أعمالهم فتاجأوا البلاد بدخول الامير والقبض على الخائنين . وتتابعت المشاهد والحوادث بمثل سرعة الصور المتحركة . منها : موكب الملك — المدافع تدوي والطبول تدقّ — هيجان بغداد وفرحها — فوز الحق والصلاح واندحار الخيانة والطلاح — مجيء العروس في موكب بديع — المناداة بالممدوح خليفة وجلوسه على « التخت » — افراح — انوار — أهازيج — زينات — شموس مجلوة — بدور منيرة — وفوق كلّ ذلك خطب وقصائد . وبات العروسان « يديران كؤوس المراد الكريّة ويتداولان اقداح الوداد العبقرية »

وفي الغد أقيمت بالطبع حفلة « تشريفات » لمناسبة الجلوس المجيد والزفاف السعيد . فوقد للهنئون ، وتليت رقاع التهانئ ، ووزعت الهدايا من العروس على ارباب الدولة .

وألمّ الملك الفتى فانبرى يخطب في الجموع شاعراً ناثراً ويمتدح النوائب التي هذّبته وعلّمته الصبر والحكمة . وها كم مثالاً من نظمه :

واشتياقي عزّي كشوقي للتى ... مذ كنتُ ألقى لاعج اللوعات
قلّدتُ سيف الصبر كفي بحوازم ... أسطو على محن الزمان العاتي
حتى قطعتُ به حبائل محنتي ... وسلكتُ نهج الرشد في طيّاتي
وانا المقرّ بما جنيتُ ، وليس لي ... عذرٌ سوى أسفي على هفواتي
فلأشكرنّ شدائداً لو لم تكن ... ما كنتُ ادري زلّتي لولاتي

***

أدركني التعب في مطالعة هذه القصّة المكتوبة بلغة « المقامات » ذات الحذلقة والكناية والسجع والتطويل . ولكنها تحثّم قراءتها وقراءة امثالها على الباحث عن مصدر التطوّر . وهذا الكتاب بارقة للفنّ القصصي الحديث عندنا ، ذلك الفنّ الذي ما زال في لغتنا جنيناً ولم يبلغ قط عند العرب طور النضج والقوّة

ان تاريخ الفنّ القصصي عند العرب قد يُلخّص في سطور وجيزة . فقد نشأ في القرن الاول للهجرة مستنداً الى تاريخ الجاهلية وظلّ في نموّ يقتبس من التاريخ ومن الخيال معاً حتى القرن الرابع . فجاء بتلك القصص أمثال « الجهرة » و « عنترة » و « بكر وتغلب » و « شيبان وكسرى انوشروان » . وغيرها من قصص الغرام مثل مجنون ليلى وجميل بثينة وما الى ذلك من شتى القصص التي دخلت بعدئذٍ في كتاب الف ليلة وليلة

وقد ألّف العرب كتباً لا اصل لها في الواقع انما استمدّت موضوعها من العلم والخيال والحكمة جميعاً . وربما كان اقدم تلك الكتب « اسرار الحكمة المشرقية » الذي قال ابن طفيل الاندلسي انهُ خلصهُ عن كتاب كبير من وضع الرئيس ابن سينا وصوّر فيه نشأة الانسان وألمع الى نظرية التطوّر

أما كتاب « الف ليلة وليلة » فهو فارسي الاصل . وقد وضع اصلهُ في القرن الرابع فتناولتهُ ايادي الناسخ بالاضافة والتحريف فكان كلٌّ منهم يزيد عليه و ينقص فيه ما يشاء ، وذلك حتى القرن العاشر

ووقف الفنّ القصصي بخمود اللغة مدة ثلاثة قرون . فحكاية عائشة بعيونها

وزواسبها تجربة أولى من النزعة المتجددة ، لاسيما في ما يختصُّ بالادب النسائي . إذ لا اعرف ان امرأة عربية وضعت قصة تامة قبل عائشة . فهي بتجربتها هذه من روَّاد المنهج الجديد

والقصة يعيبها ذات مغزى اخلاقي. لانَّ واضعتها جعلت سوء تربية الممدوح وعجزهُ عن معرفة العدوّ من الصديق منشأ مصائبهِ : فهو رأى العدوَّ في مَن يُحسنُ إرشادهُ ، ويعلمهُ كُنْهَ اهوائهِ ، وينبّههُ الى واجباتهِ ومسؤوليتهِ . وحسب صديقاً من اعاج طيشهُ وغرورهُ ، وملق منهُ الزهو والعجرفة ، وشجعهُ على العبث بكرامة الناس وكراماتهِ الشخصية. فعوقب بنتائج ضلالهِ. ولكنهُ يوم ثاب واعترف بخطأهِ بعد ان أتمَّت المحن تهذيبهُ وتهيئتهُ لتصيبهِ ، عادت إليه حقوقهُ ومراتبهُ ونال جميع رغباتهِ . ومن ثم اسم « نتائج الاحوال »

أما انَّ الحياة تتصرف معنا على هذا النمط فقد يحدث ذلك احياناً ، ولكن سواءهُ يحدثُ ايضاً . قد يتفقُ أن يعلو صوت الحقّ ، ويفوزُ الصلاحُ ، ويظفر المرء بما حولهُ بحكم الطبيعة والشرع والكفاءة او عمل الخير والتضحية . ولكن كم ذا يفوز الشرُّ ، ويغلبُ الظلمُ ، ويُجار على صاحب الحق بجميع القوانين البديهيَّة والشروعة ، فيتألبُ الناسُ على سحقهِ وإهلاكهِ وكلُّ ذنبهُ الاخلاص والتفاني !

وما كان اعدل الدنيا وأنصف الاقدار لو كوفئ كلُّ امرئ بما يأتيهِ ، وكانت الجزاء حقاً من نوع العمل !

على انهُ لا مندوحة لنا عن نشر المبادئ الاخلاقية والاخذ بها . وحسن ان تُلقن الناشئة دروس الصدق والاستقامة والصلاح مهما عصفت حولها الشرور والاكاذيب وصنوف المفاسد . يحسن ذلك لانهُ ينطبق على مبادئ الاخلاق العالية ما قالهُ فولتير « الجاحد » عن الألوهية : « لو لم يكن الله موجوداً لوجب أن نخترعهُ ! »

كذلك الاخلاق العالية لو لم تكن موجودة لوجب ان نخترع مبادئها لان تلك المبادئ الاخلاقية ، مع المواهب الفكرية والذهنية ، إنما هي لبابُ الفضل في الانسانية ، وهي التي لا يتغلب عليها مذهب سياسي ولا تعبث بها ثورة اجتماعية . فعلى من يستطيع تأييدها ونشرها ان يفعل ليذكرنا على الدوام ان تلك لدينا ذخيرة من اثمن ذخائر المثل الاعلى الذي لا يتناول جيلاً او فرداً بل تتعاونُ الدهورُ والجماعاتُ على تمثيلهِ وتحقيقهِ

« مي »